

المرأة في مسيرها وبحسب الحق

لحضرة صاحب المعالي سابع حبشى بك

وزير التجارة والصناعة

قديمًا تحدث الحكماء وترنم الشعراء بفضائل المرأة الصالحة وما يشع حولها من ضياء يحيطها بهالة من النور ، فقالوا إن "سراجها لا ينطفئ" ، وأنها كسفن التاجر تجلب رزقها من بعيد ، فالعز والبهاء لباسها وهي تضحك على الزمن الآتي .

لقد مضت آلاف السنين على هذه العبارات الحكيمة ، التي كثيرا ما ترددت على ألسنة الخطباء وأقلام الكتاب ، ولكن جدتها لم تخلق لأنها تعبر عن حقيقة ثابتة على الأيام .

ولست أريد أن أروى حديثا معادا مهما كان شائعا عن المرأة في بيتها وما لها من سلطان في هذه الدنيا الصغيرة ، فالمنازل حرة يرتد عنها الطرف حسيرا ، ولا يصل أرق ما في الخيال والشعر إلى وصف روعة ما تنطوي عليه من المعاني الجليلة . على أن هذه الدنيا الصغيرة التي تحكمها المرأة ينبعث منها نفوذ قوى يوجه المجتمع من حيث لا يدري . ولقد تساءل المفكرون في جميع العصور عن تقسيم العمل بين الرجل والمرأة ، فذهب بعضهم إلى أن الأمر شركة لا فازق فيها بينهما ، فما يصح أن يقوم به الرجل يصلح لأن تقوم به المرأة على السواء .

ومنهم من رأى أن الأمر قسمة بينهما ، وأن كلا منهما ميسر لما خلق له ، وقد قال رابندراناث تاغور الشاعر العظيم صاحب كتاب " البيت والدنيا " إن لكل من الرجل والمرأة محيطا خاصا : فمحيط الرجل يمتد في معنى السعة ، ومحيط المرأة يمتد في معنى العمق . فكان المرأة الأولى في البيت وما يتصل به ، بينما مكان نشاط الرجل في الكون الذي خلق له . وليس من مؤدى هذا أن قدر المرأة يقل عن قدر الرجل ، وإنما لكل شأنه فيما اختص به ، ولا محل للمفاضلة أو المقارنة مع وجود الفارق ، فكما أن الفضاء لا نهائى ، فكذلك العمق لا حد له .

وقد وصلت المرأة إلى مساواة الرجل في الحقوق المادية والسياسية في كثير من البلاد ، ولكن التقسيم الطبيعي للعمل بينهما حال دون أن تكون مساهمة المرأة الفعلية في مسؤوليات الرجل في الحياة العامة بنصيب متساو أو متكافئ ، فالمجالس النيابية لا يزال الرجحان فيها للرجال ،

وفي الوزارة البريطانية الحالية التي ألفها المستر تشرشل أخيراً وقع الاختيار على سيدة واحدة لتتولى شؤون وكالة وزارة الصحة العمومية بين عشرات الرجال ، ووصل كثير من السيدات إلى درجة رفيعة في العلم والفن والأدب ، فالعالم مدين بكشف معدن الراديوم وماله من فوائد جليلة في علاج أخبث الأمراض لسيدة فاضلة هي مدام كوري .

وقد أنشئت في سنة ١٩٣٦ وكالة وزارة للبحث العلمي في فرنسا ولدت مزايلها مدام جوليا كوري التي تحمل اسم والدتها العظيمة والتي منحت جائزة نوبل لتفوقها في العلوم الطبيعية .

وفي الأدب امتازت سيدات كثيرات في جميع البلاد وفي مختلف العصور ، فكان لمن شأن عظيم في الشعر والنثر . ولستأ نحتاج لأن نذهب بعيداً لنجد الأمثلة التي تثبت هذا . ففي آداب اللغة العربية حكمت مرثي تمأضر لأخيها صخر بأنها أشعر من حسان بن ثابت ، كما نجد بين الشعراء والكتاب المحدثين عائشة التيمورية ، باحثة البادية ، وفي الفن نجد للسيدات آثاراً باهرة كصورة " الرسامة وابنتها " لمدام فيجي إبران وهي في مجموعة اللوفر بباريس .

وإذا كان للمرأة فضل لا ينكر في نواحي النشاط العلمي والفني والفكري التي استعرضناها ، فإن مساهمتها به فيها من جهود كان محدوداً بطبيعة تقسيم العمل بينها وبين الرجل . على أن هناك ميداناً للنشاط الإنساني للمرأة فيه فضل سبق ، والتفوق ، وهو ميدان الخدمة الاجتماعية . ذلك لأنها أقرب إلى دائرة اختصاص المرأة منها إلى دائرة اختصاص الرجل ، فالخدمة الاجتماعية إلا امتداد العطف والحنان والشفقة من دائرة البيت التي تقع تحت سلطان المرأة إلى دائرة أوسع وهي دائرة المجتمع .

لهذا اقترن وصف سليمان الحكيم للمرأة الصالحة بذكر فضلها خارج البيت بعد بيان أثرها البالغ داخله ، فهو ينعتها بأنها " تبسط يديها إلى المسكين وفي لسانها سنة المعروف " ذلك أن الطبيعة اختصتها برقة الشعور ودقة الاحساس ، ولذا لا غرابة في أن تصل المرأة في هذا الميدان إلى مصاف البطولة الحقة .

وقد سبقني كثيرون إلى ذكر أمثلة من سجل التاريخ لهذه البطولة التي بلغت في بعض الأحوال حد الاستشهاد في سبيل الواجب الإنساني . وأود أن أضيف إلى هذه الأمثلة ما كان للمرأة أحياناً من أثر في تغيير مجرى التاريخ لإصلاح عيوب اجتماعية صارخة .

فقد كان من أهم الجنود التي لاقت نجاحاً وتوفيقاً في إزالة وصمة من جبين الإنسانية ما بذل في سبيل إلغاء النخاسة وتحرير الرقيق . ولم يكن هذا الغرض النبيل سهلاً المتال ، وإنما أريق على جوانبه دماء كثيرة في حرب طويلة بالولايات المتحدة بين الشمال والجنوب انتهت بإعلاء كلمة الحق وكسر أغلال العبيد .

وتفتقر حرب التحرير هذه باسم الرئيس العظيم ابراهيم لينكلن. ولكن اذا تساءلنا الى من يرجع الفضل في إيقاظ الضمير العام وتنبيه الشعور الإنساني الذي حث يطالب بالقضاء على هذا الظلم، لكان الجواب أن من حرك الملايين لتتصدر لهذه القضية العادلة سيدة. ولعل القراء يذكرون اسم هذه السيدة فهي مسز بيتشرستو التي وصفت في كتاب "كوخ العم توم" ما كان يلاقه أولئك البؤساء من ظلم ومعاملة قاسية ، فقد وزع من هذا الكتاب ما لا يقل عن المليون ونصف المليون من النسخ، وترجم الى ما لا يقل عن ثلاث وعشرين لغة، ولم تهب السيدة قلبها وجنانها وقلمها لهذا العمل الانساني النبيل فحسب ، بل وهبت ابنها الكاتبة فردريك بيتشرستو الذي أصيب في الحرب بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ، فاذا ذكر اسم ويلبرفورس واللورد بردهام مقترنين بهذا المجهود الانساني النبيل فان اسم السيدة بيتشرستو تحيط به حالة من المجد لن تنقش يد الزمن من بهائها .

وأود أن أوجه القول بصفة خاصة الى آسائتنا وسيداتنا العزيزات لأقول لمن إن ما استطاعت امرأة أن تعمله تستطيع امرأة أخرى أن تقوم به. وفي ميدان الخدمة والواجب متسع للجميع .

لقد ذكرت معركة اجتماعية كللت بالنصر ، هي إلغاء الرق ، وأسمح لنفسى أن أذكر معركة اجتماعية أخرى لا تزال ناشبة لتحرير نوع آخر من الرقيق وإعادة الكرامة والأمن كاملين الى الطفل والمرأة :

في عصبة الأمم مؤسسة لحماية الأطنال والنساء لها فروع في كثير من البلاد ، وليس غريبا أن يكون معظم القائمين بهذه الحركة النبيلة من السيدات .

ولعل الكثيرين من القراء يذكرون الآنسة هيجسون وما كان لمرورها بهذه البلاد من أثر عظيم سيكون له ما بعده في محاربة الفساد .

على أنني قبل أن أذكر هؤلاء الآنسات والسيدات معركة قريبة من أبوابهن ، هي محاربة الفقر والمرض والذيلة في بلادنا العزيزة ، أود أن أختار لمن بمضى الأمثلة عن رسالة المرأة في جميع أقطار الأرض كذلك رحيم يعالج ما في المجتمع من البليات .

كنت أطالع منذ أيام مقالا للكاتبة الأمريكية دوروثي كانفيلد عن إيواء الأطفال اللاجئين الذين أصبحوا محرومين من بيت يأويهم أو عائل يدبر شأنهم بسبب الحوادث الجسام التي يجتازها العالم الآن . وقد كانت تلك السيدة في أثناء الحرب الماضية في فرنسا فوقفت جهودها على إيجاد بيت للأطفال الذين فقدوا آباءهم في ميادين القتال وأصبحوا تحت رحمة الأقدار في هذه الدنيا المضطربة ، وهي اليوم تقوم بنفس المهمة وتسخر لها قلمها

ومواردنا . هذه رحمة مستمدة من رحمة الله ، وقد أمرنا بها أمرا صريحا في الكتب السماوية جميعا ، وليس أبلغ من القول الكريم ” ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى ؟ فاما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث “ .

وسيقال للأبرار يوم القيامة ” رثوا الملكوت المعد لكم ، لأننى كنت غريبا فأوئتمونى “
فيسألون الله عز وجل ” يارب متى رأيناك غريبا فأوئناك ؟ “ فيجيب ويقول لهم ” بما أنتم فعلتموه بأحد إخوتى هؤلاء الأصاغر فى فملم “ .

فى العام الماضى وقع حادث عظيم ، هو اعتراف السلطات العامة فى مصر لأول مرة بواجب الخدمة الاجتماعية بين الطبقات المعوزة وإنشاء وزارة للشؤون الاجتماعية . على أن هذه الخطوة الموفقة قد تقدمتها جهود الكثيرين من محبى الخير فى بلادنا العزيزة لدراسة مشكلاتنا الاجتماعية ومعالجتها ، وقد كان حظ المرأة منذ أول الأمر فى هذه الحركة المباركة وفيرا . فعقد الاجتماع الأول لإنشاء مدرسة الخدمة الاجتماعية فى منزل سيدة ، وكان معظم المتبرعين لهذا المشروع الخيرى الجليل من السيدات ، وتولت عمادة مدرسة الخدمة الاجتماعية سيدة .

وتتضم جماعة الخدمة الاجتماعية سيدات فضليات لسن أقل تحمسا لما أخذنه على عاتقهن من الرجال .

وتتشرف هذه الجماعة الآن برياسة حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء الفعلية ، كما تشرف بعضوية ثلاثة من الوزراء منهم صاحبها المعالى وزير المعارف العمومية ووزير الشؤون الاجتماعية ، وقد نظرت أخيرا فى مشروع العناية بأمر الأحداث الذين يقدمون للحاكم وعهدت بتنفيذ اصلاح اعوجاجهم إلى هيئة على رأسها سيدة .

وقد لا يذكر الكثيرون أن فكرة إنشاء محاكم خاصة للأحداث — وهى الفكرة التى أخذت بها جميع البلاد الراقية — يدين العالم بها إلى سيدة هى لويزدى كوفن بشيكاغو حيث أنشئت أول محكمة للأحداث ، وقد أنفقت هذه السيدة ثروة تقدر بالملايين فى سبيل الخدمة الاجتماعية وجمعت من طريق السؤال ثروات طائلة صرفت فى سبيل إلبير لتخفيف ويلات الإنسانية .

والسيدة الآن فى الثمانين من عمرها . وقد لقبت بأكبر سائلة ، ورشحت فى وقت من الأوقات لوظيفة عمدة مدينة شيكاغو لفترط ماتدين لها به مدينتها من أعمال البر والإحسان .

وأخيرا أود أن أتحدث عن آكسة من نحرىجات كلية البنات الأمريكية ، فقلد قبلت أن تعيش فى قرية صغيرة لتعمل فى مركز من مراكر الخدمة الاجتماعية بين نساء القرية حيث ترشدن إلى العناية بأطفالهن وقد حرمت نفسها مما فى المدن الكبيرة من إغراء .

ولكنها كسبت اجرا عوضها خيرا مما فقدت وهو عرفان الأمهات في تلك القرية بجيلائها .
فقد أصبح يدعونها ملكا كريما ويتبرعون باسمها فيستعرونه لجميع بنات القرية .

بقيت لي كلمة أوجه فيها الخطاب إلى الآ نساء اللاتي تتكون منهن طاقة أزهار تقدمها
معاهد تعليم افتتحت في كل عام لبلادنا العزيزة " لا تظنن أيتها الآ نساء العزيزات أنك
أتممت دراستك ، فالحياة كلها دروس وعبر ، على أنك حصلت علما نافعا غدتك به هذه
المعاهد التي تفخرن بحق بانتسابك إليها وليس العلم بشيء مالم يقتن بالعمل ، فمن عمل بما
تعلم كان عظيما في الدنيا والآخرة . إن يوتركن وبلادك تتطاع اليك ، وتنتظر منك أن
يكون شماركن : الواجب نحو الله والملك والوطن ."

سابا حبشي

من درر الامام على

- ما المبلى الذي اشتد به الداء بأحوج الى الدواء من المعافى الذي لا يأمن البلاء .
- المسكين رسول الله الى الفنى ليحجته ، فان اعطاه فقد اعطى الله وان منعه فقد منع الله .
- مازنى غيور قط .
- مودة الآباء قرابة بين الأبناء . والقرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة .
- ما لقيت أحق الا أماننى على نفسه .
- الباهل الذى يطلب العلم شبيه بالعالم ، والعالم المتعصف شبيه بالجاهل المتعنت .
- اتقوا معاصى الله فى الخلوات فان الشاهد هو الحاكم .
- ان الله فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء . فما جاع فقير الا بما منع به غنى .
والله تعالى سألهم عن ذلك .